اللّغة والمكوَّن المعرفي (المصطلح)

أخوكم د. يونس الفقيه
المركز التربوي للبحوث والإنماء
الهيئة الأكاديميّة المشتركة
قسم اللّغة العربيّة وآدابها

يشغل المصطلح مساحة السّؤال المعرفي في تحديده، وعلاقته بهذا المعرفي كمكوِّن إشكالي/مشكلي متحرِّك في حضوره، يتقدّم على المفهوم ويقصِّر عن التّعبير فالدّلالة.

وإذا كان لا بدّ من قراءة في "المصطلح"، فالإطار المعرفي جغرافيّة

المصطلح (تجوُّزًا)، يكون في لغة لا تذوب في هذا المعجمي،

بل تذهب إلى أبعَد منه، بمستويات.

والاستخدامات: الاصطلاحي واللّفظي والشعاري.

وفروقاتها تعرضُ "المصطلح" سؤال لغة ومكوِّن معرفة.

مخطّ ـ ط

قراءة في مفهوم اللّغة

- سوسيولوجيّة اللّغة

إنتشارها

إنكسارها

المعرفة

الإشكاليّة

السّلوك

تنويعات على المعرفة

- المفهوم

كيانيّة المفهوم

لغويّة المفهوم

- **ولادة المصطلح**

المصطلح والمفهوم

المصطلح والمعرفة

- **المصطلح كمكوّن معرفي**
- **السّبق والإلحاق بيننا وبين الآخر**

التّأسيس

التّأصيل

التّنكير

- **دلاليّة المصطلح ما بعد اللّغة**
- **المصطلح أداة وثقافة، معرفة ومكوّن لهذه المعرفة.**

يمثّل ظهور المصطلح العلمي في أيّة حضارة، مرحلة متقدّمة من النّضج والتّأمّل والوعي. فالمصطلح هو تعميم أو تجريد ذهني لظاهرة أو حالة أو إشكاليّة علميّة أو ثقافيّة. ولذا فهو يقترن بنضج ظاهرتيّ التّعريفات والتّصنيفات العلميّة في أيّة ثقافة إنسانيّة، وهو من الجانب الآخر مظهر مهم من مظاهر الوحدة الذّهنيّة والثّقافيّة للأمّة، كما يمثّل في الجانب الآخر قاسمًا مشتركًا بين الثّقافات الإنسانيّة المختلفة.

وفي هذا يذهب لساني عربي معاصر (المسدى) إلى القول:

"مفاتيح العلوم مصطلحاتها، ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى. فهي مجمع حقائقها المعرفيّة وعنوان ما به بتميّز كلّ واحد منه عمّا سواه. وليس من مسلك يتوسّل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحيّة، حتّى لكأنّها تقوم من كلّ علم مقام جهاز من ليست مدلولاته إلاّ محاور العلم ذاته ومضامين قدره من يقين المعارف وحقيق الأقوال"، وفي مواصلة التّحديد يبيّ المسري أنّه " إذا كان اللّفظ الأدائي في اللّغة صورة

للمواضعة الجماعيّة فإنّ المصطلح العلمي في سياق نفس النّظام اللّغوي ليصحّ مواضعة مضاعفة، إذ يتحوّل إلى اصطلاح في صلب الاصطلاح. فهو إذن نظام إبلاغي مزروع في حنايا النّظام التّواصلي الأوّل، هو بصورة تعبيريّة أخرى علامات مشتقّة من جهاز إعلامي أوسع منه كمًّا وأضيق ذمّة ... وهو لهذا شاهد على غائب. وهي حقيقة تعلّل بصفة جوهريّة صعوبة الخطاب اللّساني من حيث هو تعبير يتسلّط فيه العامل اللّغوي على ذاته ليؤدّي ثمرة "العقل العامل للمادّة اللّغويّة[١]".

ولكلّ هذا بات من الضروري اليوم الحرص على الوصول إلى رصيد اصطلاحي مشترك، وعدم محاولة التّنكّر لهذا الرّصيد أو ضربه عرض الحائط، بحجّة الاجتهاد أو الابتكار الشخصي؛ وأحيانًا الجهل وعدم الاطّلاع على المصطلح الموحَّد في مضافه الأصليّة.

علم المصطلح أو المصطلحيّة (Terminologie) علم قديم جديد هدفه "البحث" في العلاقة بين المفاهيم العلميّة والمصطلحات اللّغويّة الّتي تعبِّر عنها. إنّه الدّراسة الميدانيّة لتسمية المفاهيم الّتي تنتمي إلى ميادين مختصّة من النّشاط البشري باعتبار وظيفتها الاجتماعيّة. ويشمل علم المصطلح من جهة على وضع نظريّة ومنهجيّة لدراسة مجموعات المصطلحات وتطوّرها، ويشمل من جهة أخرى على جميع المعلومات المصطلحيّة ومعاملتها، وكذلك على تقييسها عند الاقتضاء سواء كانت هذه المعلومات أحّاديّة اللّغة أو متعدّدتها[٢]".

تعريف المصطلح العلمي

المصطلح العلمي هو أداة البحوث العلميّة وعن طريقه يتم التّفاهم بين العلماء في شؤون المواد العلميّة. وليس هناك علم بدون قوالب لفظيّة تعرّف به وهذه القوالب اللّفظيّة هي الّتي نعني بها المصطلح العلمي، وعندما تنمو العلوم تنمو معها هذه القوالب اللّفظيّة، وقد عرَّف أحد الباحثين المصطلح العلمي بقوله: "هو كلمة واحدة، أو كلمات قليلة توضع تسمية لشيء قد يكون ملموسًا إمّا بتميّزه عن سواه، وقد خلطت اللّغة بينهما، وإمّا لحداثة اكتشافه ورؤيته أو تقديره، وإمّا لوصف بعض مراحله على مرّ الزمن، وإمّا لوجود فوارق دقيقة لم تكن مرئيّة في السّابق. فاستعملت المرادفات اللّغويّة لا بمعنى التّرادف، بل لتثبيت هذه الفوارق وقد يكون غير ملموس ممّا يستجد في الفرضيّات العلميّة[٣]".

ترجع معاجم اللّغة لفظة مصطلح: إلى الجذر "ص ل ح..حرفيًّا، ما يدلّ على صلاح الشيء وصلوحه، بمعنى أنّه مناسب ونافع. و "صَلَحَ الشيء: كان نافعًا أو مناسبًا، يقال: هذا الشيء يصلح لك[٤]" ويفهم منه ما يدلّ على المسالمة والاتّفاق. أمّا في لسان العرب: "فالصّلح: تصالح القوم بينهم، والصّلحُ: السّلم، وقد اصطلحوا وصالحوا واصّلحوا وتصالحوا وأصّالحوا، مشدّدة الصّاد، قلبوا التّاء صادًا وأدغموها في الصّاد بمعنى واحد[٥]" أي اتّفقوا عليها وتوافقوا... و"الاصطلاح في المعجم الوسيط: "اتّفاق طائفة على شيء مخصوص، ولكلّ علم اصطلاحاته[٦]".

هل ثمّة أزمة مصطلح نقدي أدبي، عربي معاصر؟

طرح السّؤال يأتي نتيجة وجود أزمة مصطلح أدبي، وهي تأتّت بوجوهها جميعًا كحالة أساسيّة من حالات الثّقافة الأدبيّة العربيّة المعاصرة، وقد فرضت ذاتها بقوّة وإلحاح على الخريطة الثّقافيّة والفكريّة، جغرافيّة - الثقافة والفكر النّقدي.

وتفترض المشكلة السّعي دؤوبًا لتحديد جوانبها، ومعالجتها وكيفيّة التّعامل معها فإلى جانب التّرميز الدّلالي "التّشفير" كإمكانيّة، يمكن لأداة التّوصيل المصطلح، والقائم على أساسيّة البعد التّرميزي التّجريدي، أن يكون توصيلاً ثقافيًّا يفعل في تكوين التّفاعل الذّاتي والجمعي للإنسان المتعامل معه أو به، وقد وقف هذا الإنسان من الحياة وشؤونها موقفه الّذي يُعرف به. أمّا أبرز مشكلات المصطلح بدءًا ففي خلط المتعاملين معه وبه من الباحثين والنّقاد -في حقول معارفهم المختلفة -، وربّما يكون سوء الفهم وعدم التّواصل فيما بينهم في أساس حضور مشكلة المصطلح.

وقد غلب اللّفظي والشعاري على المصطلح، وغيَّب الثقافي -المعرفي عنه، فما توحّد المصطلح ولا اتّفق على دلالته، ويستوي في هذا التّخبّط "المصطلح العام" وقد فقد دلالته لكثرة دورانه على الألسنة والأقلام، والمصطلح الخاص الّذي تنغلق دلالته على صاحبه بحيث لا يعرف فحواه سواه.

وقد تحرّك العقل الإنساني، فكرًا حيويًّا، يترافق، وتغيّرات المعرفة بفعل العلم المتغيّر والمتقدّم والمتّسع، فإنّ الواقع الحادث إنبنى تحوّليًّا، ومن هنا جاء التّمرحل التّاريخي سمة لحركة الأفكار، ونتاجها وما يعبّر عنها من مصطلحات، وهذا ما يعنيه نمو المصطلحات الّذي يجمع تكوينها النّسبي والخاص، ربطًا بواقع تاريخي محدّد. وإن ينطلق

المصطلح خارج القيود التّاريخيّة، فهذا الانطلاق هو الّذي يمنحه الثّبات المبني على التّجريد والتجريد كمدى معتبر، وله قيمة دلاليّة مائزة، ما دام محط النّظرة العلميّة الطامحة إلى نظّمها في دائرة العلوم والمعارف المنهجيّة، لاسيّما وأن أي علم متطوّر ما هو إلاّ محصَّل معاناة الأفكار والصّيّغ المختلفة للوعي، فهو القديم وما يجاوزه، يرثه اللاّحق عن السّابق، وقد رأى بعضهم "المعرفة العلميّة متغيّرة حقًّا، ولكن تغيّرُها يتّخذ شكل (التّراكم)، أي إضافة الجديد إلى القديم، ومن ثمَّ فإنّ نطاق المعرفة الّتي تتبعث من العلم يتّسع باستمرار"، ليغدو الوعي بالسياق الاصطلاحي المحدّد جزءًا من إرادة البناء لوعينا علميًّا.

وبناء الوعي بالمعرفة في تمرحلها تأريخيًّا يستصحب من خلال التّاريخيّة في المصطلحات سياقها الاجتماعي. فالمجتمع المنتج لمصطلحاته الخاصّة يتمتّع حتمًا بقدرة على بناء أفكاره. ويجهد في تركيب وعيه وبناء تاريخيّته وفضاءاته الثّقافيّة والرّمزيّة المائزة. ومن مؤلّفينا القدامى من وعي هذا المنطق الّذي يؤسّس للمصطلحات مضمار الحركة، ويتيح لها فضاء التّشكّل والإبداع والتّكاثر والنمو بما يوازي تشكّل العلم ونموّه. وها هو أحدهم يقول: "وكل من استخرج علمًا، أو استنبط شيئًا، وأراد أن يضع له اسمًا من عنده ويواطئ عليه من يُخرِجه إليه. فله أن يفعل ذلك. ومن هذا الجنس اخترع النّحويّون: اسم الحال، والزّمان، والمصدر، والتّمييز. واخترع الخليل (-١٧٠هـ) العروض، فسمّى بعض ذلك: الطويل، وبعضه المديد، وبعضه الهزج، وبعضه الرّجز. وقد ذكر أرسطاطاليس (-٣٢٢قزم) ذلك، وذكر أنّه مطلق لكلّ أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرّفه به أن يسمّيه بما شاء من الأسماء، وهذا الباب ممّا يشترك العرب وغيرهم فيه وليس ممّا ينفردون به". والعبارة، هنا، تجترح من الأدلّة العمليّة، ما يقوّي من حجّية منطقها النّظري، فتذكر أمثلة اصطلاحيّة من "اختراع النّحويين"، ومن "اختراع الخليل". كما أنّها تعظّم اليقين في أطروحتها النّظريّة بتجاوز المحلّية (أو الخاص) لدى العرب، حين تذهب للاستشهاد بقول (أرسطو) لتكتسب درجة من عموم الحقيقة واتّساع دائرتها الإنسانيّة.

إن ينسل مصطلح إلى أدبيّاتنا، موجودًا يتّسع، ويتمدّد إلى سياقات تفكيرنا باختلاف مستوياته، فليمثل تأسيسًا لأيديولوجيّة تسود طروحات النّاس عمومًا، يصوّتون بها من غير أن تتحدّد عندهم مضامين المفهوم وقد فاتهم أنّ مشكلة المفهوم تخضع لاعتبارات التّجريد الّذي يلتصق بمفاهيم الأبنية الفكريّة، ليؤسّس لحركات الفكر

والتيّارات والأيديولوجيّات، وذلك لعلّة علاقة هذه المفاهيم ومتغيّرات الزّمان والمكان، وهو ما يؤثّر على دلاليّتها ومعناها.

وليس صدفة أن يتحرّك هذا العالم، بمفاهيم يتداولها بين الحين والآخر من داخل دوائر مساحات تطول في ما يؤثّر في رسم السّياسة والاقتصاد، ويفيد بالتّالي مصلحة من هذا التّحرّك أو ذاك.

وإنْ يرتبط المصطلح بتراث الأمّة، فلا يجوز إسقاط مصطلح أنتجته أمّة أخرى إسقاطًا تقريريًّا Dagmatic على تراث الأخرى، من دون قراءة متشابه اللّحظة الّتي قد تكون مرّت بها أمّتان مختلفتان في وسائط الإبداع وفي التّراث عند كلّ منهما. ذلك أنّ المصطلح تعريفًا هو "لفظ موضوعي يؤدّي معنًى معيّنًا بوضوح ودقّة بحيث لا يقع أيُّ لبس في ذهن القارئ أو السّامع. وتشيّع المصطلحات ضرورة في العلوم الصّحيحة، والفلسفة، والدّين والحقوق حيث تحدّد مدلول اللّفظة بعناية".

ولكلّ علم من العلوم أو من الفنون، أو حرفة من الحرف ألفاظ تدلّ على أمور معيَّنة، يُطلق على مجموعها اسم: مصطلح، مثل: مصطلح التّاريخ، مصطلح الأدب، مصطلح الفلسفة.

وإذا ربطنا بين حراك أمّة وبين لغتها لوجدنا أنّ هذه اللّغة تبرز في النّص منعكسًا لغويًّا بدلالاته المعجميّة، ومنعكسًا للنّسيج المجتمعي الّذي يؤتيه، فهو ليس مجرّد اللّغوي، والدّلالي يذهب مباشرة إلى المعرفة، وهو ما يحتّم ارتكازه على القراءة من من منظور "اقرأ....." و "في البدء كان الكِلِمْ". ومن الدّلالة المعجميّة إلى المعرفة، مرورًا بالمجتمع، يبرز الحضور "النّصّي" إنسانيًّا بعناصره، لأنّه يقرأ العلاقات المؤسّسة على الإنسان ولأجله.إنّه النّصّ فوق الأثر بمقدّمات، ومتن وخاتمة، وعليه نطرح السّؤال عن حضور هذا النّصّ أو غيوبه في ظلّ التّحوّلات الحادثة، ويطرح النّص فعل ثقافة لقوم من النّاس وجب معرفته في

معرفة الذّات. فلقد أنشأت اللّغة العربيّة في هذا المجال ثقافة كاملة، ولم تعد مجرّد أداة ثقافة، بل، أداة وثقافة معًا. ذلك أنّه لا يمكن الفصل بين الوجود واللّغة، فعلاقة الإنسان بالوجود تتجسّد فيها، وما اللّغة إلاّ رموز اصطلح عليها ابناء المجتمع الواحد للتّواصل في ما بينهم ويمكننا أن نفسّر آليّة التّرميز، وولادة المصطلح، وظهور المفهوم، بإحالتها إلى آليّة الذهن البشري في علاقته بالواقع. ففي كون هذه اللّغة هي

سجل حضارة الأمّة، ومنبع فكرها، ورافد ثقافتها، وسمة أولى من سمات شخصيّتها، فإنّها في مرونتها واتّساعها، طوّرت حضارة أمّتها وأعلنت تقدّمها. وقد أثبتت العربيّة اللّغة أحقّيتها في الوجود، وجدارتها في مسايرة الرّكب الحضاري، واستيعابها لكلّ جديد في المصطلحات العلميّة والتّقنيّة تفد عليها من العالم في كلّ لحظة ينجز فيها مخترع أو يستجد علم في كون هذه اللّغة يمثّل مواصفاتها وحضورها، فإنّ العربيّة لم تتعلّق عن هذه المواصفات فعملت من داخلها وأنتجت لغة عربيّة، مارست التّعبير عن حضارات علميّة واجتماعيّة، وسياسيّة وفنّيّة، فزخرت بالمصطلحات والرّموز، والجمل القصيرة الّتي تحمل معاني واسعة في كلّ ضرب من ضروب المعرفة الإنسانيّة وإلى هذا يشير ما سينيو وهو يقول: "إنّ المنهاج العلمي قد انطلق أوّل ما انطلق باللّغة العربيّة، ومن خلال العربيّة في الحضارة الأوروبيّة"[٧]. (أمّا وليم درل) فيقول: "إنّ اللّغة العربيّة لم تتقهقر، فيما مضى أمام لغة أخرى من اللّغات الّتي احتكّت بها، وينظر إلى أن نحافظ على كيانها في المستقبل – كما حافظت عليه في الماضي، واللّغة العربيّة لين ومرونة يمنحانها من التكيُّف وفقًا لمقتضيات هذا العصر"[٨].

وكما هذين المستشرقين قال آخرون غيرهم عن العربيّة، يعترفون بقدرتها بما تحتويه من مفردات (وما تشتمل عليه من نظام، وما لها من فضل كبير على الإنسانيّة. لغة حفظت علوم الجميع من كلّ الشعوب وفي كلّ العلوم والمعارف.

ويقودنا ذلك إلى مسألة الوضوح في معنى "المصطلح" وهو صفة متأتّية من "الاتّفاق"، فالمعنى المتّفق على فهمه هو معنى واضح بالضرورة لدى أولئك المتّفقين عليه. والمقصود بالوضوح هنا الخلوص من اللّبس والاختلاط، ومن ثمّ كانت المصطلحات سمة علميّة في حقول المعرفة المختلفة، لأنّها من خلال صفة الوضوح والدّقة تفضي إلى التّحديد لمدلولها، وهو التّحديد الّذي تتم من خلاله عمليّة الاتّصال اللّغوي لتنقل المعلومة والمعرفة والرّأي بين المتعاطين للّغة دون عوائق. وعلى هذا كان المعنى الاصطلاحي للفظ "مصطلح" عند جبّور عبد النّور أكثر تأكيدًا على فعله التّواصلي والمفاهيمي الّذي تضطلع به اللّغة في خطابها العلمي الدّقيق.

هذا التّحديد الدّقيق للمعنى في المصطلح يعني انحسار سلطة الذات عليه، وبروز استقلاليّته بين الموضوع والذات. بما يجعله شفيفًا عن مدلوله ومطابقًا لموضوعه. حيث

يتّخذ المصطلح، صفة موضوعيّة، هي نتاج منظور منهجي "ابستمولوجي Epistemological". تتحقّق به علميّة العلم، ومن غير المقبول في العلم – كما يقول فؤاد زكريا – "أن تترك عبارة واحدة دون تحديد دقيق، أو تستخدم قضية يشوبها الغموض أو الالتباس".

هذه اللّغة وعاء معرفة، وقد تنامت من طريق الثّقافة" كثمرة للمعارف جميعها" وعليه باتت ضرورة الإحاطة بأسرارها وأساليبها الظاهرة والباطنة، فهي بتراكيبها وألفاظها وتصاريفها نتاج وخلاصة تحمل سمات الأزمنة والأجيال وبصماتها إنسانيّة، بكل خصائص هذه الإنسانيّة في فرادتها وجمعيّتها بيانًا لها على كلّ حال، ومن دون تنكير لمعارف الآخرين من أصحاب الثّقافات أوجه الحضارات الّتي سبقت على "العربيّة"، فأفادوها، منارات يهتدون بها، ويعملون بهديها فأقبلوا عليها وتعهّدوها وأغدقوا على علمائها والمنشغلين بعلومها. وهكذا تعرَّف العرب على جلّ العلم الّذي كان لغيرهم من قبل، ودفعوه إلى الآخرين من معاصريهم، ومن أتوا من بعدهم من أهل الثّقافات والعلوم، مع تجاوز هذا الموقع إلى آخر مشارك وفاعل في بحث وشرح وتحقيق وإضافات حتّى أضحت خزائن معارفهم موردًا لكلّ طالب علم ولكلّ صاحب صنعة يريد استزادة فيستزيد لاسيّما وأنّ حركة ترجمة وتعريب الكتب بدأها العرب قبل العصر العبّاسي، وكذلك حركة الكتابة جميعها، فنمت في هذا المناخ المعرفي -الحر وقد أمّنته دعوة الإسلام إلى التّفكير في أمور الدّين والدّنيا، والاشتغال بشؤون العقل والرّوح في آن معًا، ومن ثمّ العمل في سبيل إيمان واعٍ، لأن يكون المرء في الرّعيّة راعيًا ومسؤولاً. وقد وصلت هذه الحركة في العصر العبّاسي، ذروة إزهارها، يقوم على أمورها خلفاء، مثقّفون، وعلماء مفكّرون، وأئِمة عارفون، كلّهم يتعاونون في الوصول إلى إنهاض أكثر للإنسان في العقل العربي،

إضافة إلى ما تقدّم، وإن لم تؤدّ المعاني المعجميّة القديمة لفعل "ثقفَ وَثَقفَ"، المفهوم الجديد للثقافة، فلو استعملناها دون نظر كثير المعاني القديمة لوجدنا أنّ ثقافة عربيّة موجودة خاصّة بابنائها، ووجب على هؤلاء الابناء الحفاظ عليها حيال الوجود العربي، وهي الثقافة حق لهم، فلا يجوز أن يعتدوا عليها. مباشرة أو بالوساطة – بتغيير ملامحها. لاسيّما وأنّها ثقافة شمول ودخلت فيها ثقافات غير أبنائها، فأعطت هذا الغير عالميّته وذلك في وعاء اللّغة العربيّة.

وكلّهم يعتمدون لغة قدّسوها "لغة القرآن" عربيّة، وفي ظلال هذه اللّغة قدّم الخلفاءُ العلماءَ والأدباءَ والشعراء والكتّاب بها. وقد قرَّب رسول اللّه (صلعم) كتبة الوحي صحابة، والشعراء ينافحون عن الدّين في وجه الجاهليّة، ويمنعون الإسلام من أعدائه، وقد سنّها للرّاشدين سنّة. أمّا بنو أميّة فقرّبوا منهم وتقرّبوا من كلّ عربي فصيح اللّسان يخطب باسمهم فوق المنابر أو في مراسلاتهم مع الحلفاء أو الخصوم أو الأعداء، أو يقول شعرًا يدافع فيه عن سلطانهم بين العرب، فإذا شعراء القبائل رؤوس في الوفود المبايعة لهم، فيرفدونهم هبة بعضها في المال وبعضها في الجاه وبعضها في السّلطان. وتعرَّب الدّواوين، ويصير لسانها عربيًّا يدوّي في أصقاع الخلافة، يُتحدّث به ويحدّث عنه القاصي والدّاني، وبعدها تُنقل العلوم من ألسنة أعجميّة ورومية وهنديّة، تؤسِّس للنّهضة الكبرى الّتي ستحدث في ما بعد زمن العبّاسيّين.

وقد توسّعت دولتهم وعظم سلطانهم، وغنموا علوم الإسلام، ورأوا ضرورة الصّناعات وعلومها، فإنّهم التفتوا إلى الأخذ باسباب الحضارة وتوافروا عليها وأتقنوا صناعتها وعلومها وتفنّنوا بها. ومن ثمّ تحوّلوا إلى الاطّلاع على العلوم الفلسفيّة وقد سمعوها من الاساقفة والقساوسة، وذلك بالاستناد إلى الحديث الشريف": "الحكمة ضالة المؤمّن، ياخذ ممّن سمعها ولا يبالي من أي وعاء خرجت " "خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين "وطلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة... وقد حصَّل العرب علمهم تدريجيًّا وتبعًا لمقتضى الأحوال".

ويؤرِّخ للحريري ككاتب آخر خلفاء بني أميّة، فارسي الأصل، شامي المنبت، عربي اللّسان، كصاحب مدرسة في مضماره، وقد تتلمذ عليه طليعة الكتّاب العبّاسيين ومقدّميهم في البلاط: "ابن المقفّع وسهل بن هارون والجاحظ والثّلاثة بين أعجمي ومولى، ولكن لسانًا عربيًّا فصيحًا وبيانًا عربيًّا بليغًا جعلهم أئمّة في مدوَّنة الكتابة العربيّة بعدما قدّموا لمكتبتها معارف جليلة وعلوم كثيرة، وأبانوا كأحسن ما يكون بيان. ولا ننسى الشعراء المولَّدين وهم كثيرون، وقد أسعفهم لسانهم العربي ليضعهم في فواتح ديوان العربيّة وخواتيمه. فامتلأت بمصنّفاتهم رفوف المكتبات. وهكذا تهافت على العربيّة غير أبنائها يكتبون ويقرأون بلسانها فصحاء بلغاء، حتّى صعب التّمييز بين هؤلاء وبين العرب لعلوّ همّتهم في ما يكتبون ويقولون. والسّؤال المطروح هو: لماذا كان هذا التّهافت على العربيّة من غير أبنائها؟

الواضح أنّ العرب أقبلوا على الآخرين من أصحاب الحضارات السّابقة عليهم، إقبال تواد وتحاب وليس إقبال تخاصم وعداوة، ثمّ إنّهم رأوا في هذه الحضارات مخزونًا إنسانيًّا، ومددًا للاستمرار، ولا يضير العربي أن يقبل على غيره، ويفيد عمله، وينتفع به. ومن هنا فإنّ الدّاخلين في الإسلام من أبناء الثّقافات السّابقة على العرب، وجدوا في هذا المناخ المتسامح، ما حضّهم على الدّخول في الإبداع بكتابة عربيّة، تحمل محصلة الفكري والفلسفي في هذه الثّقافات الّتي وجّهت الحضارة الإنسانيّة في يوم وجهتها. ولا بأس من أن تُستعاد ثانية، وبلغة العرب هذه المرّة لتستمر تفعل فعلها الإنساني، في ظلّ قوم افترضوا ظهور هذه الثّقافة، مشهد قوّة، وليس مشهد ضعف. لاسيّما والخليفة العربي – القوي في سلطانه السّياسي والدّيني هو من يوجّه بوصلة هذه الحركة، ويصوّب إلى أهدافها بالاتّجاه الصّحيح.

وعمومًا فإنّ الأخذ العربي من الحضارات السّابقة وعنها، كان رفيقًا، لا إحراق فيه، ولا تمزيق، وإنّما أخذ من كلّ لنسان أحسن ما فيه وعنده من مقول أو مكتوب وجميع هذا الأخذ صار عندهم وبينهم علومًا للتمدّن الإسلامي استخرجوها وأفادوا بها واحدة من أرفع الثّقافات عمارة حضاريّة، بأسس ثقافيّة ثابت جذعها في الإنسان. عصبة ائتلفت حول العقل وشؤونه، يأتم الجميع بإمامة العربيّة، لغة تقدّم لكلّ واحد منهم قدر حاجته من داخل رؤيته للثقافي الحضاري مرّة، وثانية للسياسة في متابعة للرؤية الأولى. ومن دون تغييب فعل النّقد، تراثيًّا يحلل ويعلّل ويحاور الدّاخل، بغية تلمس تحوّل الأبعاد الّتي تشكّل منها الإبداع في حياة الأمّة، وهو ما يبعد غوغائيّة ومظهريّة البهرجة الكاذبة والادّعاء المخادع، وإلاّ كان الوقوع في محظور الاتّباع للآخر، ومن دون ضوابط، لكأنّ المعرفة/التّراث يتمّ إعدامها لصالح معرفة منقوصة عن الآخر، أقلّها للغة هذا الآخر، فكيف يكون أخذ منه صحيح وعنه، وتحديدًا في مساحة المصطلح، وهو ما هو لا يكون لأهله وأصحابه الّذين يداولونه، إلاّ عِلمًا أو علَما على علم إذ إنّ نشوء المصطلح ظاهرة لغويّة حضاريّة تحدث عادة بحدوث مفهوم جديد ليس له حينها ما يقابله في لغته. فيلتمس المعنيّون بذلك المفهوم إلى وضع مقابل له في لغتهم. والعادة جرت في أن يلتمسوا هذا المقابل في ألفاظهم اللّغويّة الّتي هي في متناول استعمالهم، ويتشبّسوا في اختيار المقابل بما بين المفهوم اللّغوي للمفردة وهذا المدلول الجديد وهم يجدون ذلك في علاقات بين مفاهيم معيّنة في كلّ لغة يسمونها بعلائق المجاز. وعند ذلك ينقلون المفردة من معناها

اللّغوي إلى المعنى الجديد. معتمدين أوّل الأمر في إطلاق اللّفظ، ذي المعنى الجديد، على قرائن تسمّى بقرائن المجاز حتّى إذا كثر استعمال اللّفظ في معناه الجديد الخاص بفئة وبعلم معيَّن، ترشّح اللّفظ لأن يكون حقيقة في المعنى الجديد، وبالتّالي مصطلحًا يدلّ على المعنى الجديد. فيدخل عندئذ في كتب الدّراسة والبحث، ويثبّت في معاجم المصطلحات[9]. ولم يشذّ العرب عن هذه القاعدة في ما بعد القرآن والعلوم الحادثة فيهم هذا المسلك. وتمّ النّقل بأنّ التّوليد وتحت مظلّة المجاز لوقت ما[10]، وقد خطا العرب في تعريب المصطلح خطوات فيها:

أ -الإبقاء على كثير من المصطلحات بلغاتها مع إجراء تحوير بسيط عليها.

ب - إيجاد المرادف العربي الّذي ينتشر بسرعة بسبب التّأليف والتّعليم.

ج - إبداع مصطلحات جديدة في المجالات العلميّة الفلسفيّة كافّة.

وقد شهد القرن الثّالث الهجري بداية بدايات دخول الكتب العلميّة الّتي ألّفها العلماء لتدخل المكتبة العربيّة. وقد غيَّرت العربيّة كلّ مصطلحات العلوم السّائدة في حينها.

ولم تتجنّب اللّغة العربيّة عمليّات التّبادل اللّغوي، فبسبب عوامل الاحتكاك اللّغوي المختلفة، اقتبست العربيّة ألفاظًا كثيرة من اللّغات الأخرى، وقد أخضعتها العربيّة لقواعدها الصّوتيّة، وطوّعتها في أغلب الأحيان لمقاييس أبنيتها. وجرى بها الاستعمال حتّى صارت هذه المفردات الدّخيلة بمرور الزّمن، جزءًا من ثروتها اللّفظيّة. وظاهرة الاقتباس هذه هي الّتي اصطلح عليها القدامى بالمعرَّب والدّخيل، على حين عبَّر عنها المحدثون بالقرض اللّغوي أو الاستعارة اللّغويّة[11]".

وما يجب التّأكيد عليه والتّأكّد منه هو أنّ اللّغة العربيّة وهي تحفظ تاريخ وحضارة قومها وأبنائها العرب وقد تميّزوا عن غيرهم بأنّ لغتهم صنعت حضارتهم في حين أنّ حضارة هذا الغير هي الّتي صنعت لغتهم "وعليه، فإنّ السّعي إلى تعرّف التّراث والأخذ منه، يُطلعنا على تاريخ مصطلح عربي جَم، ثر في عطائه فقد وعى العرب موقع المصطلح ودوره وما ينشئه الوعي به من انضباط علمي من جهة، ومن خصوصيّة تتيح للمؤلّفين والمفكّرين التّحرّك ضمن دوائر اصطلاحيّة يضعون أسماءها، أو يقترحون مسمّياتها، لتضيف أفكارًا، وتمدّ أخرى، وتتّسع بحدود المعرفة، وتعمّقها كتبٌ مثل

كتاب (التّعريفات) للسّيد الشريف الجرجاني (-٨١٦هـ)، و (الزّينة في المصطلحات الإسلاميّة العربيّة) لأبي حاتم الرّازي (٢٧٧هـ)، و(إحصاء العلوم)، و(كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق) لأبي نصر الفارابي (-٣٣٩هـ)، و(مفاتيح العلوم) لأبي عبد اللّه محمّد بن أحمد الخوارزمي (-٣٨٧هـ)، و(مفتاح العلوم) لأبي يعقوب السّكاكي (-٦٢٦هـ)، و(مختصر اصطلاحات الصّوفيّة) لابن عربي (-٦٣٨هـ)، و(البديع في نقد الشعر) لأسامة بن منقذ (-٥٨٤هـ)، و(كشّاف اصطلاحات الفنون) للتهانوي (١١٥٨هـ)... إلخ، بالإضافة إلى معاجم اللّغة... هي أمثلة واضحة على الإحساس العلمي بضرورة الفقه للحدود الاصطلاحيّة، والإبانة عن معانيها بما يُخلّص المتداولين من الاضطراب واللّبس والاختلاط.

إمّا إذا نحن تعمّقنا في تقليب كتب الأقدمين فسنجد إلى جانب الاحتفال بالحد والتّعريف وصك المصطلحات عند بعضهم – بما يميّزه – المساءلة بينهم على سبيل الاستفهام أو الاعتراض والإنكار، وسنجد التّغاير بينهم في مدلول المصطلح، أو مرجعيّته، أو المنطقيّة أو اليونانيّة... وهو تغاير لم يكن يحلو للبعض كأبي القاسم الآمدي (-٣٧٠هـ) حين أخذ على قدامة بن جعفر (-٣٣٧هـ) مخالفته ابن المعتز (-٢٩٦هـ) في بعض مصطلحات الفنون البلاغيّة قائلاً:"فإنّه وإن كان اللّقب يصح، لموافقته معنى الملقبات، وكانت الألقاب غير محظورة، فإنّي لم أكن أحب له أن يخالف من تقدّمه، مثل ابي العبّاس عبد اللّه بن المعتز وغيره ممّن تكلّم في هذه الأنواع وألف فيها، إذ قد سبقوا إلى التّلقيب، وكفوه المؤونة". ونظرة الآمدي، هنا حفيّة بالاتّفاق الّذي يتحسّس في اختلاف الأسماء وتعدّد المصطلحات ما يفضي إلى الفوضى والاضطراب، وبذلك تقف عبارته نقيضًا لما شاع لدى القدامى من أنّه "لا مشاحة في الاصطلاح"، وكأنّ الوقوف عند الاختلاف اللّفظي، فقط، وعدم التّقدّم إلى ما يضيف جديدًا، أو يكشف معرفة، أو يبني تصوّرًا هو أمر غير ذي قيمة بالمقياس الموضوعي.

كما لا ننسى الأصمعي وابن سلام، والجاحظ والجرجاني والأمدي وابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة وابن الاثير والقرطاجني وابن شهيد وابن وكيع وابن خيره وعبد الكريم وابن سعيد. فمع هذه الكوكبة العالمة زخر معجم النّقد العربي "بمصطلحه النّقدي وقد جاء الأصمعي بمصطلح الشاعر الفحل والشاعر "غير الفحل" بمرتكز دائرتي الخير والشر. أمّا مصطلح "الانتحال" فلابن سلام، وقد زاد عليه مفارقًا بين "الاصيل" و

"الدّخيل" وسمّى "الطبقة" وفي طبقاته "صنّف الشعراء". وكرّت مع الجاحظ الموسوعي مصطلحات نقده المعرفي وهو أضاف مصطلح "الذوق"، مع محافظته على مصطلح "البيئة" وأثرها في مستوى الشعر، كما أضاف مصطلحات "الحسن" و "القبح" و "الصدق" و "الكذب" و "الرّؤية العقليّة للتّسويغ". ولم ينسَ مصطلح "الأخذ" و "التّوارد" و "السّلخ" و "النّسخ" و "المسخ" و "الاهتدام" ثمّ "اللّفظ والمعنى"، ونظريّة (المعاني المطروحة) و (المشاهدة) و (التّجربة) في الواقع الحياتي وأهمّيتها في العمل الإبداعي. وبينما هو يتابع الجرجاني في نظريّة (النّظم)، فإنّه توسّع فيها مضيفًا مصطلح (التّخيُّل) وهو يشير به إلى (الكذب).

ومن مرتكز واقع حياة النّاقد، وأمّته، وتراثها جاءت هذه المصطلحات، وقد تطوّر الإبداع ولغته دون التّخلّي عن طبيعة تلك اللّغة.

إنّه تراث نقدي زاخر، فإن دلَّ على شيء فعلى معرفة ومن داخلها يجيء "المصطلح" هذا المكوّن فعل إبداع، ووجه فعل وجسده، ينقل صور النّهوض الفكري في هذه اللّغة وقد تمرحلت من (القرينة المعنويّة) إلى (قرنيّة التّرتيب) إلى (تشكيل الحروف)، بأثر من الحضارة العربيّة الجديدة المركّبة.

وإذا ما فارقنا ما بين المادّة المعرفيّة في النّص وما بين المادّة الإبداعيّة، وهذا مشروع، فإنّ اللّغة عصب هذا النّص ولحمته وسداه في مكوّنه إبداعًا، وتشكيلاً جماليًّا. ولا يكون النّصّ كذلك، إن أصاب إهمالُنا علاقاتِ النّصّ النّحويّة والصّرفيّة، وهي تؤسّس لبعديّة ما وراء هذه العلاقات وضرورة أن تتّسق في علائق صحيحة سليمة ومنتظمة.

المسلّم به إذن أنّ العرب قد عنوا في الماضي بلغتهم عناية لم تعرفها أيّة لغة في العالم، وانّهم قد استطاعوا تصفيتها من شوائب كثيرة، فنمت وتطوّرت وازدادت غنى مع الأيّام وقدرة على القيام بأعباء التّعبير عن جوانب الحياة المختلفة في اشد تعقيداتها، حتّى غدت لغة الحضارة والثقافة في أنحاء العالم، طوال العصور الوسطى. وبديهي أنّ العربيّة لم تتوصّل إلى هذا الشأن بسهولة وبساطة ويسر، وبين ليلة وضحاها، وإنّما اقتضى ذلك تطاولاً في الزمن واستمرارًا في الجهود، وتعاونًا لدى كثير من الفرقاء، وانصرافًا تامًّا إلى الأعمال الّتي تخدم اللّغة وتُسهم في تطويرها وشدّ إزرها.

يعمل الجميع من أجل العربيّة ويرفدونها بالدم الجديد الّذي تحتاج إليه، كلٌّ في نطاقه وفي حدود ما تتّسع له دائرته، ومع ذلك فقد اقتضى هذا الأمر، في الماضي، نحوًا

من ثلاثة قرون ليستمر بعدها طوال قرون خمسة تنتهي بنهاية القرن الرّابع عشر الميلادي، ثمّ أتى على العرب والعربيّة حين من الدّهر، توقف فيه التّطوّر، ليحلّ التّدهور محلّه، ومرّت لغة الضاد بفترة انحطاط وتخلُّف لم تعرف لها مثيلاً. والحقيقة أنّ اللّغة ليست هي الّتي انحطّت وتخلّفت، وإنّما الأمّة الّتي تتكلّم هذه اللّغة هي الّتي اصابها الانحطاط والتّخلّف: فاللّغة بأهلها ترقى برقيّهم وتتأخّر بتأخّرهم. ومثل هذا التّأخّر عاشته نتاجاتهم فالتّقدّم في الحياة يفرض تقدّمًا في اللّغة يواكبه، لأنّ اللّغة في جوهرها ليست سوى قالب لفظي للحياة. على أنّ هذه العمليّة لا تحدث بطريقة آليّة ساذجة، وإنّما يقتضي حدوثها وعيًا وعزمًا وتخطيطًا وتدخّلاً إراديًّا من قِبَل أطراف متعدّدة. ولمّا كان تطوير اللّغة وأنماؤها وإغناؤها أمرًا جماعيًّا عامًّا تنتظم فيه الأمّة بكاملها أفرادًا وهيئات ومؤسّسات ودولاً. كانت التّبعة ملقاة على كاهل الجميع، وكان النّهوض باللّغة مسؤوليّة كلّ إنسان قادر على أن يخدم هذه اللّغة في شيء، ومسؤوليّة كلّ هيئة أو مؤسّسة أو دولة تعنيها هذه اللّغة. والمسؤوليّة تقتضي التزامًا، والالتزام يعني تحويل الفكرة، الّتي تتجسّد في كلمة، إلى فعل؛ وهذا الفعل هو الّذي نحتاج إليه، والّذي نريده مخلصًا واعيًا إراديًّا، فجهود هؤلاء جميعًا ينبغي أن تتضافر من أجل النّهوض باللّغة وامدادها بما تحتاج إليه من مقتضيات الحياة العصريّة، في الصّناعة والتّكنولوجيا والعلوم والفنون والآداب والفلسفة. سواء أكان ذلك بالألفاظ المفردة أم بالجُمَل، بالمصطلحات العلميّة أم بأسماء الأدوات والمواعين وسائر الأشياء. وسواء أكان بالاساليب وطرق التّعبير، أم بتطوير القواعد والأصول وطرائق التّدريس. ولا ريب في أنّ التّرجمة والتّعريب والنّحت والتّركيب أمور ذات أهمّية كبرى في هذا النّطاق، كما أنّ الأبحاث والدّراسات والمؤتمرات، والمؤلّفات العلميّة والأدبيّة والفكريّة إجمالاً، تلعب دورًا بارزًا في تطوير اللّغة العربيّة وجعلها، في العصر الحديث، قادرة على القيام بأعباء التّعبير عن الحياة العصريّة الرّاقية.

فاللّغة العربيّة هي لغة العقيدة السماويّة أوّلاً، ولغة جميع الناس يتواصلون بها ويتّصلون معها، وهي تستوعب تجاربهم العامّة والفرديّة وجه ثقافة ووعاء حضارة حتّى ولو في لحظة السّواد العام تاريخيّاً وسياسيّاً وثقافيّاً. إنّها تسجّل الحدث بتداعياته، وتسعى إلى تجاوز معوقاته في الزّمان والمكان، إلى كونها الموقع الخلّاق ويوسّع أمامه الآفاق، فما تقع هذه اللّغة في الأسر، وتتطلّع إلى صبح يتنفّس اكتشافاً للذّات وللآخر بمواصفات الاختلاف والتنوّع، فتتكامل معه وتستزيد به، وتصير أكثر غنًى وعمقاً، وتكون نافذة

لأهلها على هواء آخر جديد، متنوّع فوق التعدّديّة، وفوق الأحاديّة المعمّمة، فيكون الثقافي والإنساني والسياسي تنوّعاً ووجوداً حقاً، وتنقل التجارب الحضاريّة العامّة في لغة تصير حافظة للتاريخ وحاملة للتراث. كلّ هذا يؤهّل اللّغة لتطوّر يدفعها إلى الجزء من مقوّمات الشخصيّة الثقافيّة لشعب من الشعوب أو أمّة من الأمم، إذ تحمل اللّغة أشياء كثيرة من هذه الشخصيّة وتتواجد في أعراف الناس وتقاليدهم وقيمهم، على اختلاف التحوّلات التي يمرّون بها بأكثر من جغرافية أو تاريخ.

وإذ اللّغة في مثل هذه الأهميّة، فلأنّها ترتبط بتجربة مستعمليها والموضوعات التي تدخل في مضمون استعمالاتها وحجم الثقافة والخبرة اللّتين تسهمان في تطويرها للتوصّل إلى الشّكل التعبيري المناسب، وقد تعلّق الأمر باللّغة العربيّة اليوميّة تجابه تحوّلات مصيريّة فإنّ استخدامات جديدة لهذه اللّغة وجب أن تكون، فتفيد الحادث الجديد بالمستويات جميعاً، متابعة، متطوّرةً تجارب السّلَف الصّالح غير متنكّرة لهم، بل وعلى العكس، متجذّرة بما يشبه المطلق في هذه الأصول، فتكون لها، فوق استخداماتها المعجميّة الأولى، ودلالاتها اللّفظيّة - الوضعيّة، استخدامات مصطلحيّة، ودلالات حداثيّة ترتبط وعلاقة حراك وتفاعل الزمان والمكان العربيّين، وذلك بُغية التعرّف إلى الذّات ومحاورتها، فلا تدخل في أحاديّة مفردة، تمنع من التفاعل المتنوّع مع الحاضر، وتقتل كذلك الماضي.

إنّ العربيّة اللّغة تؤكّد على خطاب، يدخل في الحياة، يُجيز الدّخول على " المحرّمات " مع لغة جديدة متجدّدة " عصريّة " تحديداً، لتعبّر عن طبيعة واقع موجود، يربطها كلّ يوم أكثر فأكثر بتغيّراته في المجالات كافّة، لا سيّما وإنّها متغيّرات إنسانيّة بالنهاية، فلا تتحدّد المسافات، ولا تضيق المساحات، بل تتّسع الأمداء في نصّ - الخطاب، لغة، توسّع أمام النفس لتجوز إلى أبعد ممّا يقيّدها بقيود الأبعاد والأطوال مرّة، ومرّة، بقيود الشعور بزمن النكوص في المركز، وبذا، فإنّ آفاق القيَم والمثل تنفتح إلى ما بعد الآحاديّة في جدليّة الذات والآخر، وقد اخترقت هذا الآخر، وأفادته، واستفادت به، ولا خوف من اعتبارات " الدوي " الحادث عن الاصطدام، وهو مفرق المكان ليس " حدثاً " بمعنى الجدّة، ولكنّه الحدث المتابعة، فوق الاتّباعيّة، وإنّما بمرتكزات " الاختلاف "، الذي يطلق السّؤال، ويحرّك الإجابة - الفعل، لأنّه السّؤال يختزن ويختزل " مفاعيل الحدث السياسي الحضاري "، بمستويات العلائق مع المركز، المفقود، بمواجهة متغيّرات

" قلق مقيم "، وقد حدث كلّ شيء في مساحة السياسي والاجتماعي والثقافي حدثاً عاماً، وهو ما سوَّغ التطوّر المعرفي للغة النّص - خطاباً آخر، يصرّ على التاريخي في أصول الوعي، فوق المسبقات - الوقائع القائمة موانع سلطة تقطع الطريق على رحلة المعرفة - البقاء، وهي التي يجب أن لا تنتهي، ليكون للقائمين بهذه الرحلة حقّ الثبات في مواقع الحاضر المؤسِّس لغد أفضل، بمعطيات الماضي الذي كان مشرقاً. ولمّا كانت اللّغة هي السّؤال والاختلاف والفعل، فقد شكّلت دائماً أداة المواجهة، ووجه المقاومة، باتّجاه تحديد وجود آخر جديد ومتمايز في معنى اللّغة وحدودها وأبعادها.

إنّها اللّغة - عربيّة، تطلع من السّؤال، تؤكّد على الاختلاف، بعيداً من الخلاف، وتكون الفعل بمواجهة الوقائع على مساحة الزمن المرفوض نكوصاً، يُلزم العربي فيه نفسه، ضرورة أن يقدّم لمشروع إنهاض مركزي آخر " عالمي السّمات "[١٢]، في دائرة عملانيّة لحظت أبرز نقاطه في مكوّنات صراعيّة عسكريّة مرّة، سياسيّة مرّة، وثقافيّة - حضاريّة في كلّ مرّة، من داخل اللّغة، الوعاء يتّسع للالتزام بهموم الأمّة وتطلّعاتها إبداعاً جمعياً يؤكّد ترابط ما بين اللّغة والواقع، فلا تساكن اللّغة هذا الواقع، ولا تنقطع عنه. ولكن علاقة حراك بينهما لا بدّ ستؤكّد على موقع الاستمرار للعرب جزءاً من فعل حضاري إنساني عام، ومساحة وجه ثقافي ضروري أن يبقى موجوداً في مسار الحضاري فوق اعتبارات الحال السياسي الذي فيه إزهار مثلما فيه ذبول، والعربيّة في كلّ مرّة من داخل عبقريّتها تحمل الآخر إلى تفاعيلها وتصاريفها ويصير هذا الآخر بعض مادّة حضورها الغني والدائم الحياة.

هذا الغنى في حضورها العربيّة، قراءة ثانية للّغة فوق معجميّة بحيث لا تتوقّف هذه اللّغة، عن موقعها ناقدة، غير مأزومة بخشبيّة الإلحاق، أو الدّونيّة وقد صار المشتغل بها كلاقط لا حولَ به ولاقوه، يأسره القديم، ويبهره الحديث، فلا ينتج ولا يكون. وعليه يصير بالتّالي، ضرورة، أن يشتغل عقل، يقف خلف هذا "التّداول"، فلا تتحدّد لغةٌ/لغةً بل وتصير لسانًا، اللّغة بعضه، ومنظومها بعضه الآخر. لتكون الكلمة الفصل نهاية لمعقول القول وفكريّته، وعلميّة هذا القول الّذي يحتاج "المصطلح" فوق المفهوم فما هو المفهوم أوّلاً؟

يتحدّد المفهوم شكلاً من أشكال انعكاس العالم في العقل يمكن معه معرفة ماهيّة الظواهر والعمليّات وتعميم جوانبها الجوهريّة، وهو المفهوم النّتاج لمعرفة متطوّرة تاريخيًّا، ترتفع من مرحلة أدنى إلى مرحلة أعلى وتلخّص هذه المعرفة باساس الممارسة النّتائج المتحصّل عليها في مفاهيم أكثر عمقًا، تحسُّ المفاهيم القديمة وتحدّدها بشكل أكثر دقّة، كما تصوغ المفاهيم الجديدة. لهذا، فإنّ المفاهيم ليست جامدة وليست نهائيّة، وليست مطلقة، بل هي في تطوّر مستمر وتغيير ترقى إلى رتبة الانعكاس المطابق للواقع. والمفاهيم تعطي المعنى لكلمات اللّغة، أمّا الوظيفة المنطقيّة الرّئيسة للمفاهيم، فهي أنّها تنتقي – في الفكر ومن خلال صفات محدّدة – تلك الأشياء الّتي تهمّنا من وجهة نظر الممارسة والمعرفة. وبفضل هذه الوظيفة تربط المفاهيم الكلمات بالاشياء المحدّدة، ممّا يجعل من الممكن تحديد المعاني المضبوطة للكلمات، والاشتغال بها في عمليّة التّفكير. وإنّ تمييز فئات الأشياء وتعميمها في مفهوم هو شرط اساس لمعرفة قوانين الطبيعة. وكل علم يشتغل بمفاهيم محدّدة، تتركّز فيها المعرفة الّتي تجمعها العلوم.

والمفهوم كنتاج أعلى للمادّة يستلزم تكوينه عمليّة معقّدة تشمل تطبيق مناهج المعرفة (المقارنة، التّحليل والتّركيب، التّجريد، الصّياغة في فكرة، التّعميم) والأشكال المعقّدة بطريقة أو بأخرى للاستنباط.

وغالبًا ما تنشأ المفاهيم العلميّة، بشكل مبدئي على أساس التخمينات الافتراضيّة الخاصّة بوجود الاشياء وطبيعتها. وعلى أساس معرفة قوانين التّطوّر واتّجاهاته، يمكن صياغة مفهوم بعض الاشياء قبل ظهور الاشياء نفسها، ومن ثمّ، فإنّ صياغة المفاهيم هي مظهر للطبيعة النّشطة والخلّاقة للفكر، رغم أنّ الاستخدام النّاجح لهذه المفاهيم الّتي تمّ إبداعها يتوقّف كلّية على الإحكام الّذي ينعكس به الواقع الموضوع فيها. وكل مفهوم هو تجريد، الأمر الّذي يظهره كما لو كان انحرافًا عن الواقع، ونرى أنّه بالمفهوم نحصل على معرفة أكثر عمقًا بالواقع من طريق فرز جوانبه الجوهريّة وفحصها، على أنّ العيني الّذي ينعكس بشكل غير كامل في المفاهيم الجزئيّة يمكن أن يظهر إلى حدّ ما من الاكتمال عن طريق تجميع المفاهيم الّتي تعكس جوانبه المختلفة. وإنّ أيّ مفهوم علمي باعتباره انعكاسًا للواقع، هو مفهوم متحرّك، متدفّق، شانه في هذا شأن الأشياء والعمليّات الّتي هو تعميم لها. ولا يتعارض العام في المفهوم مع الفردي والجزئي، بل أكثر من هذا، إنّ المفهوم العلمي يحوي على الثّراء الّذي يتّصف به الخاص

والجزئي، وعلى أساس ما هو عام فحسب يمكن فرز ومعرفة المجموعات /الأنواع/ المحدّدة للأشياء، بالإضافة إلى الاشياء المفردة الّتي تندرج تحت فئة ما. والتّناول الجدّي للمفهوم يتأكّد بتطوّر مجموع العلم الحديث، ويفيد كمنهج للمعرفة العلميّة.

وإن يرتبط تطوّر العلوم -والمعرفة في اساسها، بالمناهج العلميّة المنبثقة من المواد المعالجة، والهادفة إلى تنحية كل الغيبيّات، والاهتمام بالمحسوسات، أو بما تستطيع الحواس -مجرّدة أو مستعينة بالآلات -الوصول إليه، وعزله ومراقبته، وتسجيل كلّ الملاحظات العلميّة الذكيّة المتعلّقة به، بغية تفسير الاشياء، وكشف القوانين الّتي تخضع لها، واستنباط القوانين العلميّة النّهائيّة أو شبه النّهائيّة المتحكّمة بهذه المادّة أو تلك... من أجل تحليل عناصرها الأوّليّة وإعادة تركيبها، بما يخدم العلم والإنسان معًا. إذن، إنّه ليس صدفة أن يتحرّك العالم بمفاهيم يداولها بين الحين والآخر، في دوائر – مساحات تطول الاجتماعي – الاقتصادي كقوى تؤثّر في رسم السّياسة والاقتصاد، وتفيد بالتّالي مصلحة من هذا التّحرّك أو ذاك، وتتسارع حركة "التّأسيس" حضورًا يندرج تحته كل عناصر "التّداولي"، الأيديولوجي والتّقني والاقتصادي والثّقافي، وفي أطرها جميعًا "الثّقافي..."، وصولاً إلى تأكيد المسمّى "المفهوم" وقد ارتبط بحدوثه، أن ينشأ "المصطلح".

تمر أمامنا مصطلحات كثيرة، فلا يتّفق لغويّونا ولا باحثونا على معنى كلّ مصطلح منها، ولا يتّفقون على ما يدخل في تعريف كلّ منها، وما لا يدخل، بحيث بتنا نقرأ عن الباحث الواحد أو الكاتب الواحد، وفي مؤلّف واحد، مرّة باستعمال بعضها مكان بعضها الآخر، ومرّة ثانية أو ثالثة بالتّفريق بينها أو بين بعضها دون أن يكون ذلك واضحًا في منهجيّة الكاتب أو حتّى في ذهنه، على أنّ المصطلح علمي ويجب أن يكون واضحًا ومميّزًا بشكل دقيق عن كلّ المصطلحات الأخرى.

والمصطلح كلمة لا يكون لها إلاّ معنى واحد، تحدّد مفهومًا معيّنًا للعلم والتّكنولوجيا والفن...، والمصطلح عنصر في اللّغة العلميّة تحدّد إدخاله ضرورة الحصول على دلالة دقيقة غير ملتبسة لمعطيات العلم، وخاصّة تلك الّتي لا تكون لها أسماء مطلقة في لغة الحياة اليوميّة، والمصطلح باعتباره متميّزًا عن الكلمات المستخدمة في الحياة اليوميّة خلو من التّسميات الانفعاليّة. وإن يتعلّق الأمر بالمصطلح النّقدي الأدبي العربي المعاصر، والجهود المبذولة لتحديد جوانب المشكلة المتعلّقة به، وبالتّالي معالجتها، أو

معرفة كيفيّة التّعامل معها ، فإنّه يمكن تعرّفه بالتّرميز الدّلالي أو التّشفير، وهو بالتّالي يمكن أن يكون أداة توصيل، وفي حضوره كمصطلح نقدي أدبي نجده توصيلاً ثقافيًّا ، فاعلاً في تكوين تفاعل الذّاتي والجمعي للإنسان المتعامل معه أو به من خلال موقف هذا الإنسان من الحياة وشؤونها. وتحيط بالمصطلح النّقدي العربي إشكاليّات تأتّت له من التّركيبات التّشكّليّة والوظيفيّة المتعارضة بين المصطلح مجموع الألفاظ المحدّدة لجهة دلالته اللّفظيّة ، وبين المصطلح المنفتح على القيم الفكريّة تتفاعل وتتغيّر بحكم الواقع الّذي يتعامل معها.

المصطلح إذن هو ما نفهمه وما تقرنا عليه معاجم اللّغة ، فاصطلح عليه الناس، أي ما اتفقوا على معناه من ألفاظ أو تعابير من عصر معيَّن، وفي مكان معيَّن، فلكل مبحث مصطلحاته التي يفهمها أصحابه ويتداولونها بينهم، بل قد يتعذّر ولوج مبحث من المباحث الحديثة دون مصطلحاته سواء كان ذلك في العلوم البحتة أو العلوم الإنسانيّة وقد استعارت من مناهج العلوم الطبيعة ما يلائمها نشدانًا لليقين وإثبات الحقائق. ونلفت هنا إلى الحاضن "الاجتماعي" للمصطلح ذلك أن بدايات التعارف مع هذا المصطلح، قد تأتت بعد أن أنشغل العلماء بالحادث من العلوم الوافدة ، فكان وضع الالفاظ والتعابير "المقابلة للحادث" ضرورة ، وقد بذلوا جهدًا يشتقوّن ويعربون ويترجمون. وهكذا حتى ألفت الأذن العربيّة ثمار جهودهم فكان أن جرت ثمار هذه الجهود مجرى المصطلح، الذي تعدى في مراحل متقدمة ما أشرنا إليه آنفًا ، فقدموا ألفاظًا عربيّة قابلت ألفاظ الحضارة الحديثة ، بعضها عريق في "العربية" "أصطلحوا" أو "اصطلح" المجتمع على منحه معاني جديدة ، وبعضها حديث الاشتقاق لكنه صحيح لا تمجّه الأذن العربيّة ، إلى جانب ما ترجم أو عُرِّب. وقد رصدت "الرؤية الاجتماعيّة التي قبلت بعض الجديد وأخضعته لقواعد النحو والصرف، في وقت رفضت بعضه الآخر ، فما بقى رغم صحته وفائدته. فقد كانت رؤية المجتمع "مرصدًا" أفاد ما أفاده وأهمل ما أهمله في عمليّة "غربلة اجتماعيّة" أساس لقيامة "المصطلح" واستمراره بين الناس، وبالتالي وصوله إلى المعجم: يقول توماس جونسون: "ما المعجم إلا مستودع لما اتفق عليه الناس من ألفاظ ومعانٍ وما الحكم في ذلك كله إلا للمجتمع، الذي يستخدم هذه الألفاظ بهذه المعاني المحدودة ، ثم يشيعها ويفشيها ، لتصير جزءًا من التفكير العربيّ، وقد تنزاح بعد ذلك عن معناها الأصليّ الذي كانت وضعت له ، ويصعب ردها إلى أصلها مهما كانت براعة المترجم، لا سيما ما كان منه المصطلح

النقدي وقد عرفناه بمثل خطورة حضوره في حياة الأمّة، نجده نتاجها الجمعي، بتمرحل التراثيّ، والإبداعيّ، والمعياريّ، حتى لا يمكن معه لناقد أن يتجاوزه كمقياس لقيمة الإبداع الحياتية والفنيّة، ويسير المصطلح، يتحول بتحوّل الحياة الأدبيّة مع ما تحمل في طياتها ممّا أخذته في مرة سابقة. وفي كل مرة يحمل المصطلح الأبناء على الآباء، وفي كل مرة تندمج معه ملامح العام بالخاص واللاحق بالسابق. وفي هذا ما يدل على صلاحه وصلوحه، منذ جذره في "ص ل ح"، الذي ترجع إليه لفظة "مصطلح صرفيًا، يعني أنه مناسب ونافع، يقال: هذا الشيء يصلح له، كما نفهم ما يدل على المسالمة والاتفاق، إذ يرد في لسان العرب أن: "الصُلح: تصالح القوم بينهم، والصُلح: السَّلم، وقد اصطلحوا وصالحوا وأصّلحوا وتصالحوا واصّالحوا، مشددة الصاد، قلبوا التاء صادًا وأدغموها في الصاد بمعنى واحد، أي اتفقوا وتوافقوا... و "الاصطلاح" في المعجم الوسيط: اتفاق طائفة على شيء مخصوص، ولكل علم اصطلاحاته". فالمصطلح بالمدلول يحملنا على التفكير في ما سبق من الاختلاف مع الأخذ بالاعتبار حركية الاتفاق، وجدلية علاقته بالاختلاف، وعليه بات المصطلح يتحرك بحركيّة هذه العلاقة ربطًا بإنسانيّة الإنسان وتداوله لغات ومواقع أمكنة تتغير وتتبدل وهكذا إن كل مصطلح هو بالضرورة مشروع مفتوح، يتغير مع تحوُّل يمر عليه من فرد إلى فرد، ومن زمن إلى زمن ومن لغة إلى لغة، والتغير هنا معرفي واجتماعيّ ونفسيّ وقيمي يقتضي الاصطلاح من جديد على مدلوله الحادث، لأن "الناس جميعًا يتساوون في فهم معاني الأشياء، ولكنهم لا يتساوون في فهم معاني ما لها من أسماء" إذا المنظومة الاصطلاحيّة ذات ترابط وتعالق في الدلالة على حقلها المعرفيّ، أو على مؤلفها أو عصرها أو مكانها، وهو التعالق الذي يجعل تحليلها منفّذًا للكشف عن المفاهيم والرؤى والطروحات المختلفة، وقدّرها، وتمييزها. فإذا كانت مصطلحات بدلاليتها تتغاير بين استعمال وآخر، وهو تغاير سياقي في "مجموع الكلمات والعبارات الاصطلاحيّة المتصلة بفرع من فروع المعرفة أو بفن من الفنون، أو الكلمات والعبارات الخاصة بعالم معيّن في بسطه وعرضه لنظرية من النظريات الفنيّة أو الأدبيّة أو العلميّة. ان ظهور المصطلح في أي لسان يمثل مرحلة حضارية متقدمة في نضجها وتأملها ووعيها بالمصطلح، إذ المصطلح تعميم أو تجريد ذهني لظاهرة أو حالة إشكالية علمية أو ثقافية. ولذا فهو يقترن بنضج ظاهرتي التعريفات والتصنيفات العلمية في أية ثقافة إنسانيّة، ويمثل في الجانب الآخر قاسمًا مشتركًا بين الثقافات الإنسانية المختلفة. لقد أكد المصطلح

حضوره مفتاح العلوم المختلفة وفي الآن ذاته ثمرة هذه العلوم القصوى، بما هو مجمع حقائقها المعرفيّة وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عما سواه، وهي الألفاظ الاصطلاحيّة مسلك الإنسان إلى منطق العلم، لكأنها (الألفاظ) تقوم في كل علم مقام جهاز من الدوال، بمدلولاته محاور العلم ذاته ومضامين قدّره من يقين المعارف وحقيق الأقوال. وفي مقارنة بين اللفظ الأدائي في اللغة كصورة للمواضعة الجماعيّة وبين المصطلح في سياق نفس النظام اللغوي، يصبح مواضعة مضاعفة وقد تحوَّل إلى اصطلاح في صلب الاصطلاح. فهو إذن نظام إبلاغي مزروع في حنايا النظام التواصليّ الأول، هو بصورة تعبيريّة أخرى علامات مشتقة من جهاز علامي أوسع منه كما وأضيق ذمة... وهو لهذا شاهد على غائب... وهي حقيقة تعلل بصفة جوهرية صعوبة الخطاب اللساني، من حيث هو تعبير يتسلط فيه العامل اللّغويّ على ذاته ليؤدي ثمرة العقل العاقل. تبقى الإشارة إلى ضرورة الحرص على الوصول إلى رصيد اصطلاحي مشترك والتمسك به والعلم على تطويره مصطلحًا معرفيًا لا يحتمل التنكير والأهمال جهلاً أكان أو عمدًا، لا سيما وعلم المصطلح أو المصطلحيّة، Terminoligy علمٌ قديمٌ جديد هدفه "البحث" في العلاقة بين المفاهيم العلمية والمصطلحات اللغوية التي تعبر عنها، . إنه الدراسة الميدانيّة لتسمية المفاهيم التي تنتمي إلى ميادين مختصة من النشاط البشري باعتبار وظيفتها الاجتماعيّة. ويشتمل علم المصطلح من جهة على وضع نظرية ومنهجيّة لدراسة مجموعات المصطلحات وتطورها، ويشمل من جهة أخرى على جميع المعلومات المصطلحيّة ومعاملتها، وكذلك على تقييمها عند الاقتضاء سواءٌ كانت هذه المعلومات أحادية اللّغة أو متعددتها".

ويحدد لعلم المصطلح الجوانب التالية من البحث العلميّ والدراسة الموضوعية:

أولاً – البحث في العلاقات بين المفاهيم (الجنس / النوع / والكل /الجزء) والتي تمثل صورة أنظمة المفاهيم التي تشكل الأساس في وضع المصطلحات المصنفة التي تعبر عنها في علم من العلوم.

ثانيًا – البحث في المصطلحات اللّغوية والعلاقات القائمة بينها ووسائل وضعها، وأنظمة تمثيلها في بنية علمٍ من العلوم. وبهذا المعنى يكون علم المصطلحات فرعًا خاصًا من فروع علم الألفاظ أو المفردات Lexicology وعلم تطور الألفاظ Semasiology.

ثالثًا – البحث في الطرق العامة المؤدية إلى خلق اللّغة العلميّة والتّقنية بصرف النظر عن التطبيقات العلمية في لغة طبيعية بذاتها. وتصبح المصطلحيّة بذلك علمًا مشتركًا بين علم اللّغة والمنطق والوجود والإعلاميات والموضوعات المتخصصة وكذلك علم المعرفة (الابستملوجيا) Epestemology والتصنيف. فكل هذه العلوم تتناول في جانبٍ من جوانبها التنظيم الشكليّ للعلاقة المتعددة بين المفهوم والمصطلح.

نختم أخيرًا بالمصطلح مكوّنًا معرفيًّا للّغةٍ تواضَعَ أبناؤها على التّعامل معها بمعرفة قيمتها وقِيَمِها، وسعوا إلى خدمتها يوم استخدامها لغة لسانًا إنسانيًّا، ينتشر بانتشار الإنسان منهم بين الآخرين، وتكون بكونهم بعض هؤلاء الآخرين فيبقون وتبقى، ويزهرون وتزهر.

تغيب هذه اللّغة ومعها "مصطلحها" أو "مصطلحاتها" ساعة يرفضون أن يكونوا جزءًا من صنّاع حركة الحياة في هذا العالم المحيط بهم ولا فراغ في الزمان ولا في المكان.

الحواشي

---

[1] المسرى د. عبد السّلام: "قاموس اللّسانيّات" الدّار العربيّة للكتاب، ١٩٨٤، ص ١١/(٢) مصدر سابق، ص ١٣.

[2] القاسمي د. علي: "مقدّمة في علم المصطلح" الموسوعة الصّغيرة"، وزارة الثّقافة والإعلام بغداد ١٩٨٥ (ص/٧١ - ٢٧١).

[١] المصطلح ما هو وكيف نضعه؟: د. سعيد طه ياسين بحث ضمن مؤتمر التّعريب ص ٦٣٥

[٢] المعجم الوسيط: مادّة (صَ لَ ح)

[٣] لسان العرب مادّة (صَ لَ حَ)

[٤] المعجم الوسيط المادّة نفسها.

[77] بحث لغة القرآن والتّكنولوجيا، عبد العزيز بن عبد اللّه، ضمن بحوث مؤتمر تعريب التّعليم العالي في الوطن العربي ص ٣٠٨/ بغداد ١٩٨٠.

[8] المصدر نفسه: ص ٣٠٩.

[9] المصطلح العربي: د. عبد الرّزان محي الدّين: م.س ص ٦٥٣

[10] المصدر نفسه، ٦٥٤

[11] التّرادف في اللّغة :حاكم مالك لعيبي، ص ١٦٣ (ط. دار الحرّية بغداد/١٩٨٠)

[12] العالميّة هي غير العولمة.